عمـــــــارة الرومـــــانســـك - ROMANESQUE ARCHITECTURE

بدايات عمـــــارة الرومـــــانيسك في ألمـــــانيا

1. مقدمـــــة - Introduction

تغيرت البنية السياسية في أوروبا بعد اقتسام أبناء وأحفاد شارلمان المملكة من بعده. أدى ذلك إلى تجزئة أوروبا الغربية إلى ممالك أصغر تعتمد البنى الاجتماعية والاقتصادية السابقة نفسها وازداد دور النبلاء المحليين وملاك الأراضي أهمية. كل ذلك انعكس على العمارة التي لم تشهد انطلاقة جديدة مهمة إلا في نهاية القرن العاشر.

يطلق مصطلح "**عمارة الرومانيسك Romanesque Architecture**" على العمارة القروسطية في أوروبا ما بين نهاية القرن العاشر وحتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين. ظهر هذا المصطلح في فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر وطرح من قبل Charles de Gerville ليدل على المباني المتأثرة بالعمارة الرومانية وخاصة نتيجة اعتماد الأقواس نصف الدائرية وأعمدة ودعامات والقبوات المختلفة في بنائها.

دراسة عمارة الرومانيسك في أوروبا، تعني دراسة الأساليب المعمارية التي سادت مختلف أرجائها، فرغم إطلاق كلمة الرومانيسك على العمارة الأوروبية عموما في هذه الفترة فإن هذه العمارة كانت تختلف من منطقة إلى أخرى بسبب مجموعة من العوامل من أهمها المعطيات الطبيعية الخاصة بكل منطقة وما يرتبط بها من طبيعة مناخية ومواد أولية يمكن استخدامها في البناء. يرافق ذلك التأثر بالتراث المعماري الذي كان قائما في كل منطقة والذي يختلف بين شمال وغرب أوروبا وبين جنوبها، حيث كانت لا تزال الكثير من المباني الرومانية والبيزنطية قائمة، إضافة إلى مؤثرات جديدة ظهرت مع امتداد نفوذ الحضارة الإسلامية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ووصولها إلى الأندلس وإلى صقلية وجنوب إيطاليا.

لم يقتصر الاختلاف على ظهور شخصية معمارية متميزة في كل من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وانكلترا وإسبانيا ضمن ما يعرف بعمارة الرومانيسك وإنما كان هناك تباين أيضا في بداية ظهور هذه العمارة ونهايتها من بلد إلى آخر.

فبعد قرن من عدم الاستقرار - تلا حكم شارلمان - بدأ النشاط المعماري بالظهور مجددا في النصف الثاني من القرن العاشر في ظل الأوتونيين Ottons أباطرة منطقة Ostfranken، التي تقابل غرب ألمانيا اليوم، نتج عنها ما يعرف بالعمارة الأوتونية Ottonian Architecture التي تأثرت بشكل كبير بالعمارة الكارولينغية. ومن ثم بدأت التطورات المعمارية في فرنسا في الربع الأول من القرن الحادي عشر. وفي النصف الثاني من هذا القرن نكون قد وصلنا إلى أوج عمارة الرومانيسك، الذي استمر حتى منتصف القرن الثاني عشر، وهي فترة بدأ فيها الانتقال تدريجيا إلى المرحلة التالية وهي العمارة الغوطية Gothic Architecture خاصة في فرنسا. أما في كل من ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا فنجد استمرارا لعمارة الرومانيسك حتى أواسط القرن الثالث عشر.

2. بدايات عمـارة الرومانيسـك – العمـارة الأوتـونية في ألمانيا

Early Romanesque Architecture - Ottonian Architecture in Germany

1.2. خصائص عمـــارة الرومانيســـك

نشأ النموذج الجديد من المباني الدينية نتيجة الرغبة بالحصول على عمارة ضخمة تضاهي عمارة الرومان خاصة وأنه على عكس المدن الرومانية والبيزنطية، التي تظهر أهمية ومكانة الدولة لم تكن مدن القرون الوسطى قد تطورت بعد وبالتالي اضطلعت الكنائس والأديرة بهذا الدور.

تطور الطقوس الدينية liturgy في الفترة الكارولينغية وما يليها وتعددها مع ازدياد عدد الرهبان والأديرة وانتشار القداديس التي تعتمد على المواكب procession وما يرافقها من تراتيل كل ذلك أدى إلى إضافة عناصر جديدة إلى الكنائس مثل المجاز المعترض transept وفراغ مخصص للمرتلين choir، كما زاد تمجيد القديسين ورفاتهم وآثارهم relics مما تطلب إضافة هياكل صغيرة chapels في أماكن مختلفة من الكنيسة وبناء كنيسة سفلية crypt تضم ضريح أحد القديسين. كما أن استخدام الأديرة بشكل مؤقت كمقر ملكي تطلب حلولا جديدة مثل الـ westwork ككتلة واضحة في الجهة الغربية من الكنائس.

نتيجة الرغبة في جعل بناء الكنيسة يستجيب لكل هذه الاحتياجات مجتمعة تم استخدام **المبدأ التجميعي في العمارة additive principle** أي دراسة الوظائف التي يحتاجون إليها ضمن الكنيسة والتي يتطلب كل منها فراغا معماريا معينا ومن ثم تجميع هذه الفراغات والعناصر المعمارية المكونة لها مع بعضها البعض بطرق وحجوم مختلفة مع الحفاظ على استقلالية الفراغية لكل منها. المبنى الناتج عن ذلك هو عبارة عن مجموعة من الأجزاء المتدرجة المستقلة ولكن تأثيرها وبالتالي تميز المبنى لا يظهر إلا ككل متكامل سواء في الداخل أو الخارج.

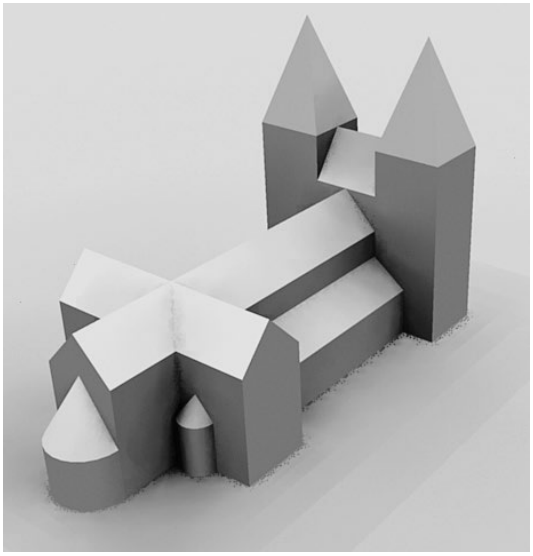

شكل وموقع العناصر المكونة للكنيسة وطريقة ارتباطها مع بعضها يختلف حسب الوظائف الدينية والسياسية وحسب التقاليد المحلية.

المبدأ التجميعي في العمارة additive principle

ما هي العناصر التي يمكن أن تتألف منها الكنائس في عمارة الرومانيسك؟

يبقى المسقط البازيليكالي المكون من مجاز مركزي مرتفع nave ومجازات جانبية على شكل أروقة مفتوحة باتجاه المركز aisles هو المكون الرئيس لجميع الكنائس كونه مخصص لأداء الطقوس الدينية من قبل المصلين ويناسب حركتهم. وهذا الجزء هو بمثابة الجسم المركزي الذي ترتبط به كل العناصر الأخرى. هذه العناصر هي: المحراب الرئيس apse الذي يقع في جهة الشرق غالبا، إضافة إلى محاريب ثانوية أو جانبية والمجاز المعترض transept والرواق الأمامي narthex والصحن atrium المحاط بالأروقة، الذي يتقدم المبنى من جهة المدخل في جهة الغرب غالبا وهي جميعها عناصر معروفة منذ بدء بناء الكنائس.

أضيف إليها في القرون الوسطى مجاز أو أكثر يتقدم المحراب مباشرة وهو فراغ مخصص للمرتلين choir، كما تحول قبر القديس الذي أقيمت فوقه الكنيسة إلى كنيسة سفلية صغيرة crypt وهي تقع على الأغلب في جهة الشرق تحت المحراب الرئيس وفراغ المرتلين، مما يجعل هناك تمايزا في المناسيب داخل الكنيسة. كما أن ازدياد عدد الزوار وخاصة في كنائس الحج أدى مع الوقت إلى ظهور أروقة محيطة بالمحراب وفراغ المرتلين تدعى ambulatory.

كما يعد بناء الأبراج towers بشكل إفرادي أو على شكل أزواج من أهم الإضافات التي غيرت من شكل الكنائس وأعطتها اتجاها شاقوليا واضحا، علما أن أغلبها لا يؤدي وظيفة فعلية وإنما رمزية. هذه الأبراج يمكن أن تتوضع من جهة المدخل في الغرب ضمن ما يعرف بالـ westwork أو تتوج تقاطع المجاز المركزي والمجاز المعترض بما يعرف بـ crossing tower.

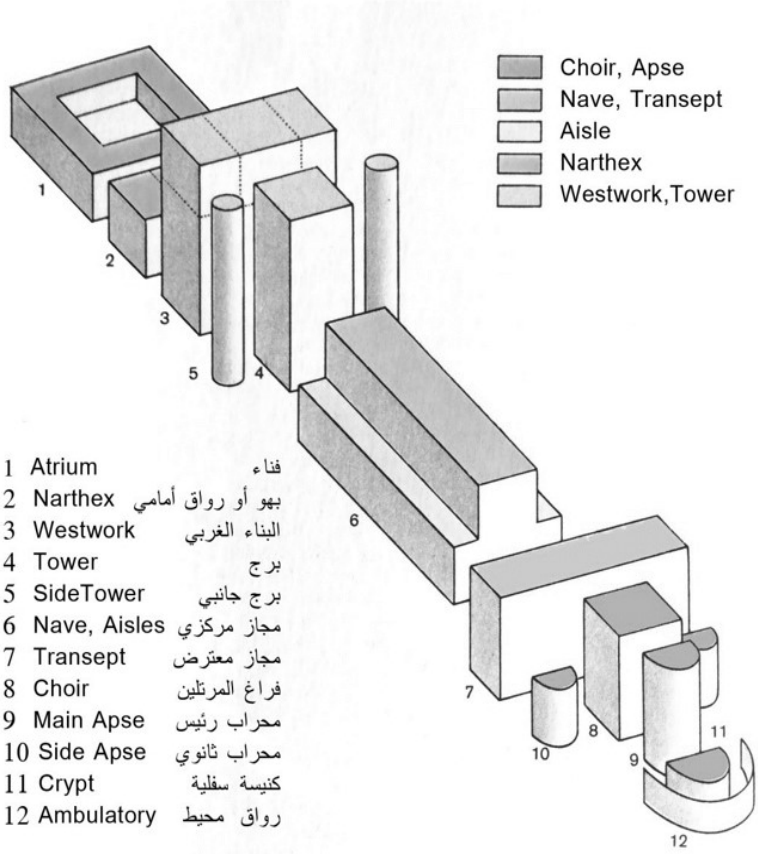

العناصر المكونة للكنائس في عمارة الرومانيسك باستخدام المبدأ التجميعي في العمارة

ظهرت أولى الكنائس المبنية وفق هذا المبدأ التجميعي في الفترة الأوتونية في ألمانيا ضمن ما يعرف بالعمارة الأوتونية Ottonian Architecture حيث ظهر ارتباط ملوك هذه الفترة بالقسطنطينية وبالتالي بالعمارة البيزنطية ويعتقد أنه تم استقدام بنائين بيزنطيين وأرمن ساهموا في تشييد الكنائس الحجرية الجديدة.

تتميز كنائس هذه المرحلة بكونها ذات جدران حاملة ثخينة مبنية من الحجر ولا تفتح فيها إلا نوافذ قليلة ذات أقواس نصف دائرية، كما تفصل بين المجازات أروقة بسيطة arcade تتناوب فيها الدعامات والأعمدة (وفق التقليد البيزنطي) تحمل أقواسا نصف دائرية أيضا وتعلوها جدران ملساء مصمتة (على الأغلب كانت تحمل رسومات جدارية) ومن ثم نوافذ علوية clerestory windows.

كما تتميز أيضا باستمرار استخدام الأسقف الخشبية (حتى منتصف القرن 11م) وخاصة ضمن المجاز المركزي في حين تم أحيانا تسقيف المجازات الجانبية بالقبوات المتصالبة أحيانا.

ومن أقدم الأمثلة التي لا زالت قائمة كنيسة دير الراهبات سان سيرياكوس في غيرنروده St. Cyriakus - Gernrode وكنيسة القديس ميخائيل في هيلدسهايم St. Michael – Hildesheim، إضافة إلى كنيسة صغيرة هي كنيسة القديس جرجس في رايخيناو-أوبرتسيل St. Georg church - Reichenau-Oberzell.

2.2. كنيسة دير القديس ميخائيل في هيلدسهايم - St. Michael church, Hildesheim

تقع هذه الكنيسة على تلة شمال قلعة وكاتدرائية مدينة هيلدسهايم. وتم بناؤها ما بين 1007-1033م.

استخدم في هذا المبنى أيضا المبدأ التجميعي additive principle ولكن بطريقة أكثر كمالا، إذ تتكرر العناصر في الجهتين الشرقية والغربية تقريبا مما ينتج عنه مبنى أكثر توازنا من حيث التوزيع الداخلي ومن حيث البنية الكتلية (أقرب إلى التناظر على محورين).

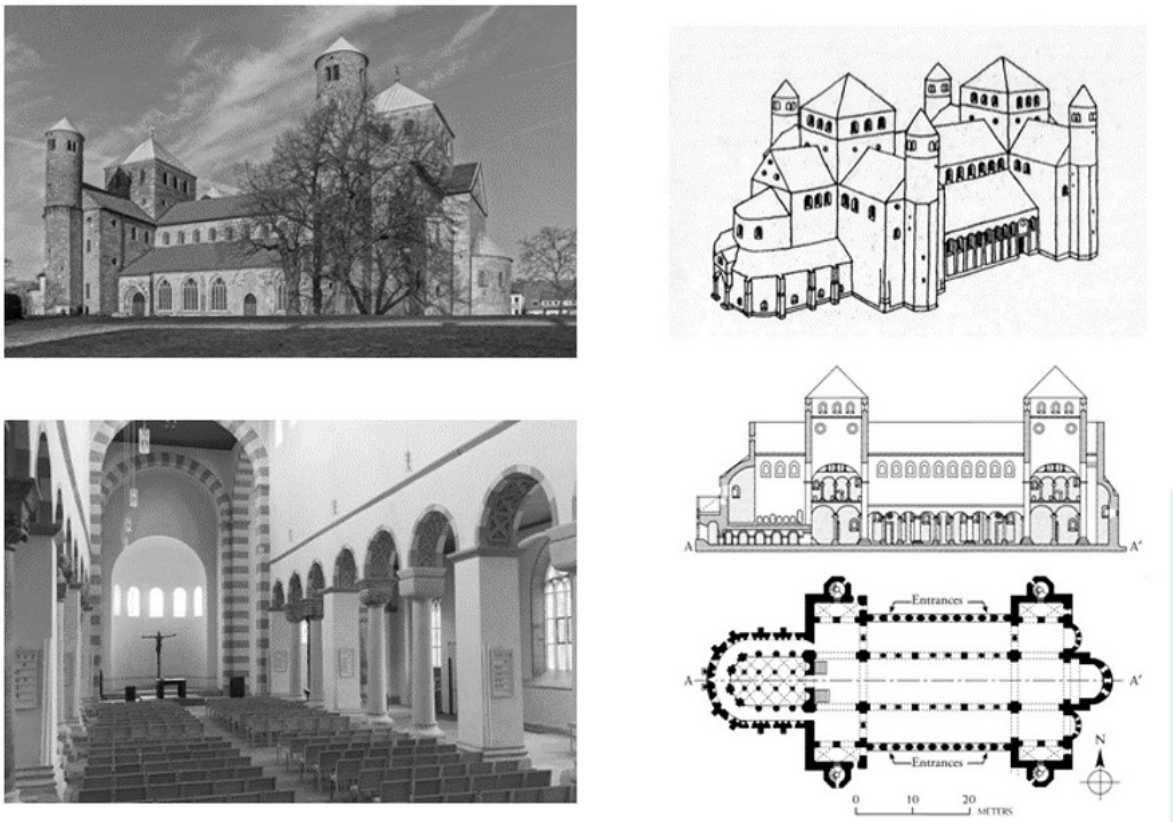

كنيسة دير القديس ميخائيل في هيلدسهايم: منظور - مقطع - مسقط - واجهة جنوبية - المجاز المركزي

يبدأ التصميم من وسط المبنى المكون من مجاز مركزي مرتفع nave مفصول عن المجازين الجانبيين aisles برواق تتناوب فيه الدعامات والأعمدة. يعلوه مباشرة جدار مصمت وفوقها منطقة النوافذ العلوية clerestory windows. ينتهي هذا الجزء من المبنى بسقف جملوني خشبي يغطيه من الداخل سقف مستعار خشبي غني بالرسومات (يعود إلى مطلع القرن 13 م) ينتج عن ذلك فراغ مركزي بنسبة 2:1 كنسبة بين العرض والارتفاع.

يحد هذا البنيان من الشرق والغرب مجازان معترضان transept متماثلان لهما نفس ارتفاع وشكل السقف الجملوني، الذي يعلو المجاز المركزي ولكن يتم التركيز على كل منهما من خلال برج مربع مرتفع ينتهي بهرم يقع مباشرة فوق منطقة التقاطع crossing tower.

تتكرر في هذه الكنيسة فكرة المحرابين الرئيسين في الشرق والغرب double choir حيث يتقدم كل منهما فراغ المرتلين choir وهو هنا عبارة عن استمرار للمجاز المركزي بعد المجاز المعترض (نفس الارتفاع، نفس التسقيف) مع وجود محرابين جانبيين يحفان بالمحراب الشرقي بارتفاع طابقين. في حين تمتد هذه الفراغات نحو الخارج بوضوح في جهة الغرب وترتفع أرضيتها لتفسح مكانا لكنيسة سفلية crypt مع رواق محيط يضم مدخل الكنيسة الرئيس المتوضع بشكل محوري.

تراكب جميع هذه العناصر يظهر بشكل واضح خارج المبنى، فكل عنصر يبقى من الأسفل إلى الأعلى مستقلا ككتلة ومرتبطا مع العناصر الأخرى ليشكل كلا متكاملا.

3. تطـورعمارة الرومانيسك في القرن 11 - 12 م في ألمانيا

تم الانتقال تدريجيا في كل من ألمانيا وفي فرنسا إلى تسقيف الكنائس بالقبوات المختلفة وخاصة القبوات الأسطوانية barrel vaults والقبوات المتصالبة groin vaults. واستخدمت القبوات في البدء لتسقيف المجازات الجانبية فقط aisles ومن ثم أيضا المجاز المركزي nave الأكثر اتساعا. أدى استخدام هذه القبوات إلى تغييرات هامة على فراغ وبنية ورمزية المباني الكنسية. انعكست هذه التغيرات على الجدران، التي ازدادت ثخانة وعلى تشكيل الرواق الفاصل بين المجازات كونه هو العنصر الحامل الأساسي.

ورغم استخدام القبوات بقيت الجملونات هي المسيطرة على المظهر الخارجي للكنائس، كونها تعلو القبوات المختلفة لحمايتها من الأمطار ومن تراكم الثلوج وتختلف درجة ميلها حسب المنطقة الجغرافية.

بدأت هذه التطورات في كنيسة دير كلوني Abbey of Cluny في منطقة بورجوندي Burgundy (Bourgogne بالفرنسية) التي بنيت فيها أول قبوة متصالبة حوالي عام 1000 م (ضمن ما يعرف بـ Cluny II) ولكن هذا المبنى هدم، ومن المباني التي لا زالت قائمة والمتأثرة به في ألمانيا كاتدرائية مدينة شباير.

1.3. كاتدرائيـــة شـــباير - Speyer Cathedral

تعد كاتدرائية شباير - وهي مدينة ألمانية تقع على نهر الراين - أكبر كنيسة تنتمي إلى عمارة الرومانيسك في العالم. يتكون المبنى منذ بدء نشوئه (بداية البناء حوالي 1030م) من كتلة غربية يليها مسقط بازيليكالي ذو مجاز مركزي ومجازين جانبيين ومن ثم مجاز معترض يليه فراغ مرتلين ومحراب كبير بارز نحو الخارج في الشرق يحف به برجان مرتفعان.

كاتدرائية شباير ذات أهمية في عمارة الرومانيسك لأنها ضمت أفكارا جديدة وخاصة من خلال التسقيف بالقبوات المتصالبة الحجرية مما جعل لها أثرا واضحا في تطوير العمارة في أوروبا الوسطى.

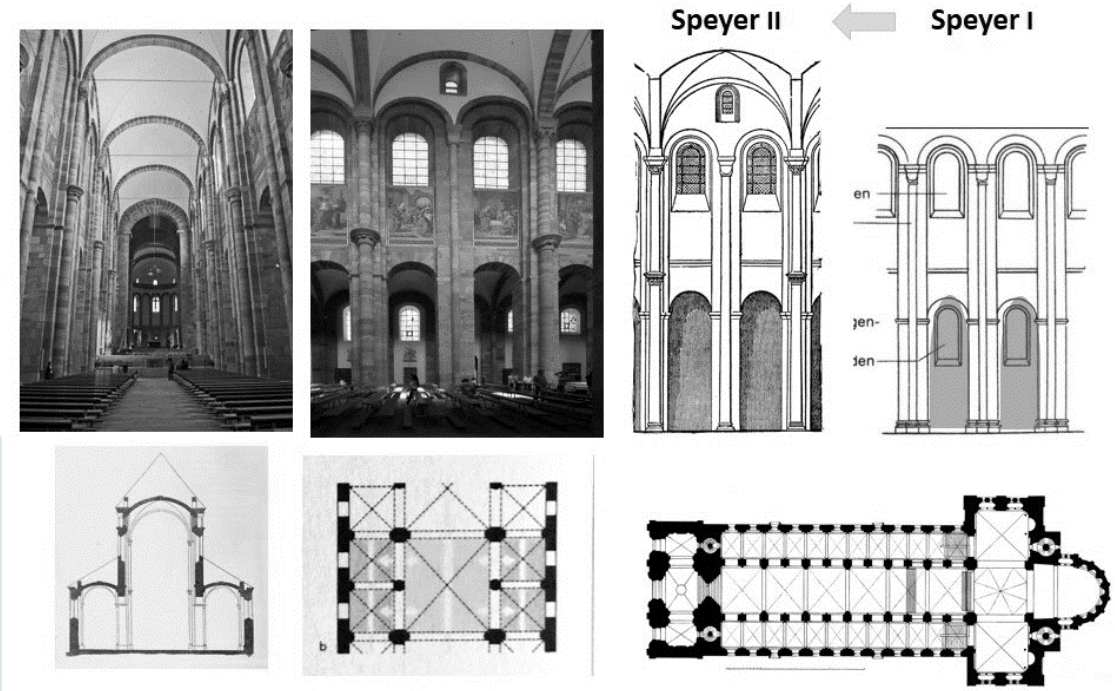

كاتدرائية شباير: تطور بنية الكنيسة بين المرحلة الأولى والثانية عند إضافة القبوات المتصالبة - المجاز المركزي - مسقط - مقطع

تميز المبنى الأول (Speyer I) بتسقيف المجازات الجانبية فقط بالقبوات المتصالبة groin vaults، بينما كان المجاز المركزي ذو سقف خشبي جملوني ولكن بعد 20 سنة من اكتماله أجريت على المبنى تعديلات هامة (Speyer II). إذ تمت زيادة ارتفاع المجاز المركزي بمقدار 5 م ومن ثم غطي هو أيضا بالقبوات المتصالبة groin vaults، رافق ذلك تغير هام على جدران الرواق. فقد تطلب تلقي القوى الأفقية الناتجة عن القبوات زيادة في ثخانة الدعامات الحاملة تم حلها بطريقة مميزة من

خلال إعطاء هذه الجدران تقسيما شاقوليا مرتبطا بطريقة التسقيف. فالأقواس المعترضة transverse arch، التي تفصل كل قبوة عن القبوة التي تليها، تستمر نحو الأسفل على الجانبين على شكل أنصاف أعمدة. **نتج عن ذلك فراغ داخلي مختلف ترتبط فيه العناصر الشاقولية مع التسقيف مشكلة كلا متكاملا.**

طريقة التسقيف ترتبط بتصميم المبنى بالاعتماد على مديول إنشائي هو القبوة المتصالبة، ويقابلها مديولان أصغر ضمن المجازات الجانبية كل منهما مسقوف أيضا بقبوة متصالبة. هذا التنظيم المعروف بـad quadratum أي "النظام المترابط" انتشر بشكل واسع في ألمانيا.

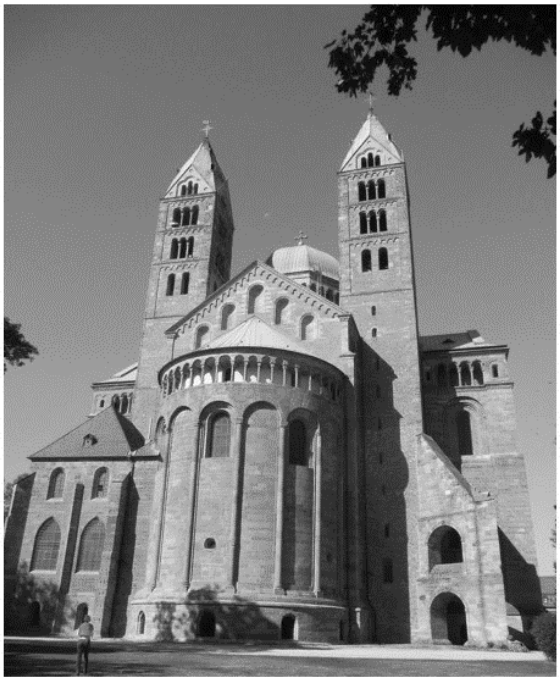

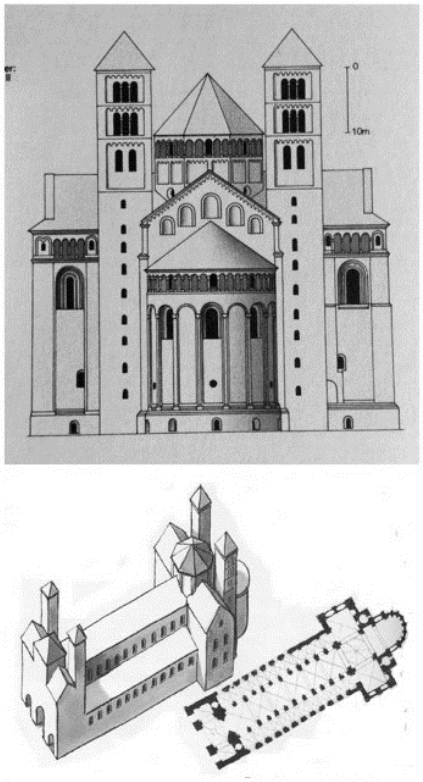

كاتدرائية شباير: الواجهة الشرقية وعناصرها - مسقط - منظور

عندما انتهى بناء كاتدرائية شباير عام 1106 م بطول 134 م وارتفاع 33 م (مجاز مركزي - عرضه 14 م) كان من أضخم مباني عصره. ويظهر هنا ازدياد في شاقولية المبنى فنسب المجاز المركزي 1: 2.4 (نسبة العرض إلى الارتفاع).

أما من الخارج وخاصة في الواجهة الشرقية فيضم المبنى خصائص واجهات عمارة الرومانيسك من حيث وجود الأبراج المربعة المقسمة إلى طبقات يزداد فيها عدد النوافذ وانفتاحها كلما صعدنا نحو الأعلى وتنتهي بنهاية هرمية بسيطة. وكذلك استخدام الأفاريز ذات الأقواس نصف الدائرية round arch frieze والأروقة الظاهرية blind gallery إضافة إلى الأروقة التزيينية الصغيرة dwarf gallery.

استمرت عمارة الرومانيسك في ألمانيا حتى منتصف القرن 13 م وحافظت على المبدأ التجميعي additive principle في العمارة، كما أصبحت جميعها تستخدم القبوات المتصالبة في التسقيف. ويلفت النظر أن فكرة تكرار المحراب في شرق وغرب الكنيسة double apse بقيت موجودة.